النفاق والمنافقين

الشيخ محمد محمود ندا

الخطبة الرابعة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونسأله التوبة والمغفرة ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد.

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. له الملك وله الحمد. يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير وإليه المصير. وأشهد أن سيدنا وحبيبنا محمدًا رسول الله. الرحمة المهداة والنعمة المسداة والسراج المنير. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

أما بعد

فقد عرفنا من صفات المنافقين أنهم يتملقون الأقوياء والوجهاء ويظهرون الإسلام ويبطنون الكفر وأنهم كذلك يهملون الصلاة وإذا اضطروا إليها قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً. وكذلك بالنسبة للزكاة، لا يؤدونها وإذا زكوا أو تصدقوا بالجهاد أو في غير ذلك من وجوه الخير فإنهم لا يفعلون ذلك إلا رياءً للناس. ولذلك أعلن الله تعالى أنه لا يقبل منهم صلاتهم ولا صدقاتهم، وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله **(ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون)**. لا ينفقون إلا كرهًا وإلا اضطرارًا. لا يتصدقون ولا يزكون إلا إذا اضطروا إلى ذلك حتى يستطيعوا أن يعيشوا ويتمتعوا وسط المجتمع الإسلامي. وهم حينما يتصدقون لا ينظرون إلى هذه الصدقات على أنها قربة إلى الله عز وجل وإنما يؤدونها كما قلت كرهًا. وكذلك يعتبرونها غرامة وليست غنيمة. وفي ذات الوقت يتربصون الدوائر بالمسلمين وينتظرون الهزيمة لهم والانكسار. وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: **(ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرمًا ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم)**.

وفي مقابل هذه الصورة المعتمة نجد الصورة المشرقة للمؤمنين الصادقين، يقول الله تعالى: **(ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول. ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم)**.

وهؤلاء المنافقون أمرهم يثير العجب والدهشة. فهم لا يتصدقون إلا وهم كارهون، وفي الوقت ذاته لا يتركون المؤمنين الذين ينفقون أموالهم قربات عند الله وصلوات الرسول. لا يتركونهم في حالهم وإنما يطعنون فيهم ويطعنون في أعمالهم، يعني يعيبون عليهم هذا العمل الذي يعملونه.

روى ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أو روى عكرمة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا يومًا إلى النفقة في غزوة تبوك. فجاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأربعة آلاف درهم وقال: يا رسول الله، مالي، أي إن الذي أملكه من المال ثمانية آلاف، جئتُك بأربعة آلاف وأمسكتُ لعيالي أربعة آلاف. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: **"بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت"**. وانظر إلى تعبير الرسول صلى الله عليه وسلم، قدم في دعائه ما أمسكه على ما قدمه، لأنه ما أمسك الذي أمسكه بخلاً ولا أعطى الذي أعطى رياءً، وإنما ينطلق فيما أعطى وفيما أمسك من إيمان قوي يبتغي به وجه الله رب العالمين. بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت.

وجاء رجل آخر اسمه ابن عقيل بصاع واحد من التمر فقال: يا رسول الله، عندي صاعان من التمر، قدمت صاعًا منها أقرضته لربي وصاعًا تركته لعيالي. هكذا، هذا فعل على قدر وسعه، وذاك أدى على قدر وسعه كذلك. حينما ننظر بالمقاييس المادية وحدها، فإننا نسأل: كم يساوي هذا الصاع بجانب أربعة آلاف درهم؟ لا يساوي شيئًا. ولكن حينما ننظر إلى جوهر الموضوع نجد أن الأمرين متساويان. تساوى عبد الرحمن مع ذلك الرجل الفقير، لأن كلاً من الفردين قدم نصف ما يملك. عبد الرحمن بن عوف قدم أربعة آلاف وادخر لعياله أربعة، وهذا الرجل يملك صاعين، قدم صاعًا لله وأمسك صاعًا لعياله. إن الأمرين متساويان، لأن كلاً إنما ينفق على قدر جهده. ولكن المنافقين ينتهزون الفرصة ولا يتركون هذه المسألة تمر بسهولة، وإنما أخذوا يلمزون هذا ويطعنون في ذاك وقالوا: عما أنفقه عبد الرحمن بن عوف، إنه ما أنفق هذا إلا رياءً للناس، وقالوا عن الرجل الذي أنفق صاعًا: ألم يكن الله ورسوله غنيين عن هذا الصاع؟ ربنا غني عن هذا الصاع والرسول غني عن هذا الصاع. وفي رواية أخرى قالوا عن هذا الرجل: إنما أراد أن يذكر بنفسه، يعني يريد أن يحشر نفسه بين الأكابر، يعني أنه كذلك يراءي الناس بهذا الصاع. لم يسلم منهم من أنفق الكثير، ولم يسلم منهم من أنفق القليل. يجرحون صاحب الكثير وكذلك يعيبون على صاحب القليل، فلا يسلم منهم هذا ولا ذاك. وفي ذلك يقول الله تعالى: **(الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات، والذين لا يجدون إلا جهدهم، فيسخرون منهم. سخر الله منهم ولهم عذاب أليم)**.

الذين يلمزون المؤمنين من المطوعين، أي من المتطوعين بصدقاتهم الكثيرة، يلمزونهم ولا يتركونهم في حالهم. الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم، إلا أقل القليل (فيسخرون منهم. سخر الله منهم ولهم عذاب أليم).

وهذا لا يصدر إلا من نفس شحيحة بالخير. والنفس الشحيحة لا تجود بما في أيديها وإن ملكت الكثير وتكدست في يديها الأموال. ثم إنهم لا يكتفون بذلك، لا يكتفون ببخلهم وإنما يزيدون على ذلك. يتطلعون إلى ما في يد الغير، يريدون أن يأخذوا ما في أيدي الآخرين كذلك. ولذلك فإنهم طعنوا في رسول الله صلى الله عليه وسلم. لم يكتفوا بالطعن بالمؤمنين الذين يتصدقون وينفقون، وإنما طعنوا في رسول الله صلى الله عليه وسلم وخصوصًا عندما كان يوزع الغنائم على الناس، وبعضها يوزعها على المحتاجين. فإن لم يعطهم منها رسول الله، لمزوه وطعنوا في ذمته واتهموه في عدالته عليه الصلاة والسلام. وفي ذلك يقول الله تعالى: **(ومنهم من يلمزك في الصدقات. فإن أعطوا منها رضوا، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون).**

روي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: لما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم حنين، قال رجل من هؤلاء المنافقين: "هذه قسمة ما أريد بها وجه الله". هكذا يقول في حق الرسول عليه الصلاة والسلام: "هذه قسمة ما أريد بها وجه الله". وهل أنت تعرف الله أيها المنافق؟ وهل أنت تقول هذا حبًا في العدالة؟ كلا، إنه لا يريد ربه ولا يبتغي وجهه ولا يحب العدالة ولا يحرص عليها، وإنما همه كله هو الطعن في هذا أو في ذاك، وخاصة في تصرفات النبي صلى الله عليه وسلم. يقول ابن مسعود: فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك، فقال: "رحمة الله على موسى، أوذي بأكثر من هذا فصبر". ونزل قول الله تعالى: **(ومنهم من يلمزك في الصدقات، فإن أعطوا منها رضوا، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون).**

ولو كان عندهم ذرة من إيمان لرضوا بقسمة الله وقسمة رسول الله صلى الله عليه وسلم. لذلك كان الله يرضى عنهم: **(ولو أنهم رضوا ما أتاهم الله ورسوله، وقالوا: حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله، إنا إلى الله راغبون)**. لو فعلوا ذلك لكان خيرًا لهم. لا مانع أن يتطلع الإنسان إلى مكسب مادي، ولكن عليه أن يسلك السبيل الموصلة إلى هذا الكسب المادي أو التي تعينه على الحصول على المكاسب المادية. لكن المنافقين لا يعملون ذلك. يريدون أن يكسبوا مكاسب ومغانم باردة، لا يبذلون فيها جهدًا ولا عرقًا. وإنما يريدون أن يشاركوا الذين يعرقون ويكدحون في عرقهم وفي جهدهم. كان المؤمنون يجاهدون في سبيل الله ويردون أعداء الله عز وجل ابتغاء مرضاته ورفعًا لراية الإسلام. فإذا حازوا من وراء ذلك غنيمة من المغانم الدنيوية عدوا ذلك فضلاً من الله ونعمة. وإذا خسروا فيكفيهم أن الله تعالى راض عنهم. ذلك هو موقف المؤمنين. أما المنافقون، فإنهم لا يبذلون جهداً في معارك الإسلام، وحتى لو شاركوا فإنما للمناورة والخداع فحسب. فإذا انتصر المسلمون وتحققت لهم من وراء النصر غنائم مادية كثيرة قالوا لهم: "نحن شركاؤكم في هذا الأمر، لأننا كنا معكم، إن لم نكن بأجسادنا في المعركة، فنحن كنا معكم بقلوبنا نؤيدكم وندعو الله تعالى لكم، فلابد أن نشرككم في هذه المغانم". وإذا خسر المسلمون وربح الأعداء، فإنهم أيضًا يذهبون إليهم ويقولون: "إنكم لم تنتصروا إلا بفعلنا نحن كنا من وراء الستار

نطعن في المسلمين ونخذلهم ونثبط هممهم ونضربهم من وراء الظهور، فلم تنتصروا إذن إلا بفعلنا، فلابد أن نشارككم كذلك فيما أخذتم من هذه المغانم."

إنهم هكذا مع هؤلاء ومع أولئك، أمثال الديدان والأفاعي تتلوى حول أي شيء معين، وفي قلبها السم وفي لسانها حلاوة المنطق.

هكذا يفعل هؤلاء المنافقون، وكما يقول المثل: **"إنهم يكثرون عند الطمع ويقلون عند الفزع"**. وفيهم يقول الله تعالى: **(الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا)**.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: تجدون شر الناس ذا الوجهين، الذي يأتي الناس بوجه وهؤلاء بوجه، أو كما قال عليه الصلاة والسلام.